تعريب المدرسة أساس كل تعريب

لفضيلة الشيخ محمد البشير الابراهيمي
رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر
وعضو مجمع اللغة العربية

كان حضرة الاستاذ الكبير الشيخ محمد البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر قد استدعي الى مؤتمر التعريب الذي انعقد بالرباط بين 3 و 7 ابريل 1961 ولم يتمكن جنابه من الحضور ووصل بحثه بعد انعقاد المؤتمر ويسعدنا ان نقدم مقتطفات من هذا الخطاب القيم ..

التعريب نوعان: نوع جزئي ونوع كلي ، فالتعريب الجزئي هو تعريب الالسنة والاقلام وآثارهما من خطابه ، وكتابة ، ويدخل فيه تعريب الدروس التعليمية ، والثاني يشمل هذا ، ويشمل التخلق باخلاق العرب والتحلي بكل ماشتهر عنهم من محامد وفضائل ، فلنعرب ما استطعنا من الالفاظ ، والمصطلحات والتعليم ، وكتبه وأساليبه ، ولغته ، ولننقح على قدر الامكان ، ولنكل بقية التصفية والغربلة للزمن ، فاننا اليوم في وقت ضرورة تتقاضانا الاستعجال في كل شيء ، وليس المستعجل كالمتاني ، ولنطهر لغتنا من اوضار الاستعمار ولغاته ولا ندع أجيالنا الناشئة تنشأ على اعتقاد ناقص في لغتها بل نتحيل لها في جلب معاني الاعتزاز بها ، ونغرس فيها معاني التمجيد لها .

ولسنا بدعا في هذا النوع من التعريب فقد سبقنا اليه اخواننا في الشرق العربي وكان أسبقهم اليه وأسرعهم خطى فيه اخواننا السوريون فما خرجوا من التسلط التركي حتى كانت كتب التربية والتعليم على اختلاف فروعه جاهزة باللسان العربي ، وكذلك كتب الطب والصيدلة والحقوق ومصطلحاتها ، وكانت الجهود التي قامت بذلك جهودا فردية ، وما تم اسبوع على الجلاء حتى ظهرت كتب عربية موضوعة ومترجمة في التعليم بجميع مراحله ، وللسوريين الى الآن نشاط محمود في هذا الميدان ولصديقنا الدكتور حمدي الخياط شيخ المتخصصين في التحليلات الكيماوية طريقة معروفة هو فيها نسيج وحده ، فهو يأبى أن يكتب كلمة غير عربية في الفرع الطبي الذي هو من اختصاصه ، وقد سمعت منه مرات ان العربية تتسع لدقائق الطب الذي برع فيها العرب ، اذا استثنينا كلمات قليلة يونانية أو فارسية ادخلها الفارابي وابن سينا من ميراثهما الفارسي .

ومصر ـ وما أدراكم مامصر ـ فقد كان لكتابها ولمجمعها اللغوي آثار مشهورة في تعريب الالفاظ والمصطلحات العلمية ، وكان لعلمائها البارزين ـ كثر الله عددهم ـ أياد على العربية بما وسعوا من آفاقها وما نموا من ثرواتها .

فهؤلاء الاخوان السابقون الاولون في هذا الميدان يجب أن نأخذ عنهم ونقلدهم ونتبع خطواتهم في التعريب من غير أن تقصر التقصير الشائن ، او نندفع الاندفاع المتهور أو نتبعهم فيما أخطأوا فيه أو نتساهل فيما تساهلوا فيه فان المتأخر متعقب وعسى أن يرزقنا الله صوابا نكون به قدوة لمن بعدنا ، ومرجعا لمن سبقنا ، فان الحق لايتقيد بزمان ولا بوطن .

تعريب المدرسة والجامعة

هذا كله في التعريب المستعجل كاللهنة التي تقدم للضيف قبل حضور القرى ، اما مايلزم بعد هذا ، من اعداد واستعداد فيلقى كله على كاهل

المدرسة الابتدائية وتلامذتها ، فالالـف المهملة التى يلغو بها صبياننا فى كتاتيبهم واكواخهم هى مفتاح التعريب الواسع .

يجب فى هذا المضمار أن تتلاقى الجهود على تعريب المدرسة الابتدائية ، وتعريب ابنائها ، وتعريب التعليم ، وتوحيد أساليبه ، وكتبه فى جميع المراحل طبقا للروح العربية، وانتقاء الكتب هو اساس التعريب وخصوصا فى المرحلة الابتدائية التى هى مرحلة التكوين اللغوى فى هذه المرحلة على طريقة ابن سيده فى (كتابه المخصص) ، وصوره المصغرة (ككتاب كافية التحفظ) للاجدابى . (والالفاظ الكتابية للهمذانى وطريقة ابن سيده هى ترتيب الالفاظ اللغوية على المعانى لا على الحروف الهجائية واحسن كتب الدراسة للصغار هما : كفاية المتحفظ ، والالفاظ الكتابية ، يبدأ التلميذ فى معرفة اسماء اعضاء جسمه فى اللغة الفصيحة ومعرفة ماهو منسوب اليها من الاعمال ، وكل ماهو متصل بها ، ثم يتدرج الى معرفة الاشياء المتصلة به مما يقع تحت نظره ويدخل فى تصرفاته اليومية ، فلا ينتهى من هذه المرحلة الا وهو حافظ لجزء كبير من اللغة ، ومحسن للتصرف فيه من دراسته (للالفاظ الكتابية) للهمذانى .

وأنا لااعنى الكتابين بعينهما بل يجب أن نؤلف لهذه المرحلة كتبا لغوية صغيرة على غرار الكتابين الذين مثلت بهما اذ هما من اثمن ماترك لنا سلفنا من الكتب الموضوعية لتربية ملكة اللغة العربية فى الصغار ، وتقرب انطباعهم على لغتهم من طريق سهل طبيعى لاعوج فيه ، ويجب حمل التلامذة على التكلم بالعربية الفصحى مادامو فى المدرسة وتدريبهم على الكلمات السهلة ثم الجمل الفصيحة ثم التراكيب الجارية على القوانين العربية ، فلا يجاوزون مرحلة التعليم الابتدائى الا وهم عرب (صغار) ومن الحكمة فى هذه المرحلة الاينطق المعلمون أمامهم بكلمة أعجمية حتى لاتخدش ملكاتهم فان كلمة واحدة قد تفسد كل عمل.

ومن العجيب ان التعليم الاوربى اليوم يسلك فى تعليم اللغات مسلكا قريبا من طريقة الاجدابى والهمذانى ثم تاتى المرحلة الثانوية فنتوسع لهم فى القواعد والتراكيب التى تقوى ملكاتهم وتنميها ونساهل قليلا فى ادخال الالفاظ الاعجمية فى علوم الطب والكيمياء وسائر العلوم الكونية الداخلة فى منهاج التعليم الثانوى ان كانت تلك الالفاظ اصطلاحية عامة وضرورية وليس لها مرادف عربى ، او تفسر له بما يقاربها ولو بجمل ، وان يمرنوا على الخطابة ويكلفوا بالقاء محاضرات قصيرة تنتقى لها الالفاظ والتراكيب وان تفرض عليهم مطالعة كتب مختصرة فصيحة ، بليغة ، سهلة ، والا تكثر لهم حصص اللغات الاجنبية حتى لاتتصادم اللغات فى أذهانهم فينشأوا ضعافا فى الكل ، فينبغى ان نفهم نحن ويفهم ابناؤنا أن اللغة العربية هى رأس المال الذى تجب المحافظة عليه وان اللغات الاجنبية هى ربح فلا تعطى من العناية ولا من الوقت الا مايزاحم لغتنا الاصلية ، ولا يبتليها بالضعف ، ولا يمس قدسيتها عندنا .

ثم تاتى مرحلة التعليم العالى فتكون الملكة العربية قد استحكمت فى التلميذ وتم (تعريبه) على اكمل وجه ، فاذا توسع فى اللغات الاجنبية فلا يخشى عليه انتكاس ولا تراجع ولا استعجام لان لسانه أصبح عربيا ويؤيده فكر عربى وعقل عربى فلا تزاحمه لغة أخرى مهما توسع فى أصولها وفروعها ولان أفكاره وتصوراته الذهنية اصبحت كلها عربية ، يملك تصويرها والتعبير عنها باللغة العربية بسهولة. وان هذا هو موضع الخطر على ابنائنا المتعلمين بلغة أجنبية من غير أن يسبق لهم المام بلغتهم ، ذلك انهم يحملون فى انفسهم – ككل البشر – تصورات ومعانى كثيرة وحقائق علمية وتخيلات ذهنية ولا يستطيعون بيانها والتعبير عنها بلغتهم العربية فى حال انهم يستطيعون التعبير عنها باللغة الاجنبية التى يتقنونها، فادت بهم هذه الحالة بالتدريج الى كراهية العربية وانتهت بهم الى بغضها ثم الى الحقد عليها واتهامها بانها لغة قاصرة ، ضعيفة ، أو ميتة ، ولا تستطيع أن تزاحم اللغات ، أو تقوى على حمل الحضارات ، ثم تنتهى بهم هذه الحالة الى الانسلاخ من العروبة والى احتقار الذين تترجم عنهم هذه اللغة وذلك هو الضلال البعيد وفاتهم أن هذه العيوب التى نحلوها للعربية هى بريئة منها ، وان العيب فيهم وحدهم ، اذ لم يتعلموا لغتهم ، ولم يفقهوا اسرارها ولم يتذوقوا بيانها ومن جهل شيئا عاداه .

الكتاب وأثره فى التعريب

وبتعريب المدرسة من الكتاب الى الجامعة ، وتعريب التعليم من المعلم الى الكتاب نكون قد عربنا جماعة تقوم بتعريب الجماعات وتعريب الاجتماع وتعريب البيوت وان اكبر عقبة تلقانا فى هذا الطور هى تعريب المعلم نفسه ، فيجب أن نحتاط لها ، والا

نكل تعريب أبنائنا الى معلم غير معرب ، ونحن نتوقع أن تقع فى هذه النقطة فيما يشبه الدور ، ولكننا نستطيع الانفكاك عند عزم الحكومات ، وادرار النفقات فعلى الحكومة وعلى وزارة المعارف المختصة ان تبدأ هذه المرحلة بتأليف الكتب الابتدائية ووضعها على ما يوافق مناهج التعريب ، وتطبعها ، وتأخذ العهد على معلمى هذا الطور أن يلتزموا مافى تلك الكتب ولا يخرجوا عنها يمينا ولا شمالا ، فالمعلم مهما كان ناقص التعريب يستطيع الاهتداء بالكتاب الكامل، والصعوبات انما تعترضنا فى تعريب الجيل الاول فلابد لنا من الصبر الطويل .والحزم الحازم والحكمة الحكيمة ، لنتغلب على جميع الصعوبات ، ونجتاز جميع العقبات، ولا تبتنى الراحة الا على التعب .

أما النوع الكلى من التعريب فهو التعريب الشامل النافع وهو غاية الغايات لكل عامل مخلص للعروبة ، فلا يتم تمامه بالعلم وحده وان بلغنا فيه عنان السماء ، فالعلم وحده لا يفيد اذا لم تصحبه فى كل خطوة تربية نفسية على شمائل العرب وهممهم ، وبطولتهم ووفائهم وصدقهم فى القول ، والعمل والحال ، وتضحيتهم وايمانهم ، وكرمهم ، وشجاعتهم واحسابهم ، وقد قال تعالى فى وظيفة الرسول : « ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة » ، فقدم التزكية التى هى التربية على تعليم الكتابة والعلم . وهذا النوع من التعليم الكلى يجب أن تقوم به جماعات من خطباء المساجد ومن الوعاظ ، ومن حملة الاقلام العربية المسلمة فيتواطأوا جميعا على نغمة واحدة هى أن الاسلام عرب جميع معتنقيه بالانتساب اليه ، وان كان من تكلم العربية فهو عربى ، وان العربى لا يكون حتى يكون فيه كل ما أثر عن العرب من شمائل وأخلاق .

اذا تم لنا التعريب بنوعيه الجزئى والكلى نكون قد حصلنا على نتيجة عجز عنها من قبلنا من الدعاة المخلصين ، وأدينا حق الله وحق دينه وحق العروبة على أكمل وجه ، وقمنا بالامانة والعهد كما أمر الله ومهدنا للقومية العربية الكاملة بازاحة العقبات من سبيلها ، وجمعنا ما فرقت السياسة والسياسيون منا ومن الاجانب وانفهم راغم ، واصبحنا بهذا التعريب الشامل اذا طلبنا معلما وجدناه عربى اللسان والشمائل والهمم والاخلاق قبل أن نجد فيه معلما واذا طلبنا خطيبا واعظا وجدناه كذلك قبل أن نجد فيه الخطيب ، واذا طلبنا طبيبا او صيدليا أو محاميا او فنانا أو قاضيا أو جنديا أو شرطيا أو غيرهم ، ممن تقوم بهم المصلحة العامة ، وجدناهم عربا بلسانهم ، وشمائلهم ، واخلاقهم ، وهممهم قبل أن نجد فيهم الموظف الشخصى العربى بالاجرة .

نحن معشر العرب أصبحنا فى حاجة ملحة الى التعريب فى كل علائقنا بالحياة فنحن فى حاجة الى تعريب السنتنا وأفكارنا وعقولنا وأذهاننا وتصوراتنا ، وأكاد أقول ولباسنا ونعالنا وأساليب معاشنا ، وهيئات أكلنا وشربنا ونومنا ، وأثاث بيوتنا ، فقد عم حياتنا كلها المسخ والقلب ، وزمانا الاستعمار بالفاقرة وهى فساد الاخلاق فينا ، فلم يبق من سمات العرب شىء الا توافه ودعاوى على الالسنة .

فاعملوا واتقنوا ، واصبروا ، وشدوا عزائمكم، واقرنوا الاقوال بالاعمال ، فقد مضت اعمارنا فى الاقوال بدون أعمال حتى ساورتنا القنوط وكدنا نيأس من روح الله ، فكم من اجتماعات دعى اليها وانفضت من غير نتيجة ، وكم من أنهار من المداد سالت فى هذا السبيل ، ولم تنته الى مفيد ، فكفروا عن سيئات من قبلكم بالجد والعزم والحسم والانجاز .

محمد البشير الابراهيمى